

## المحاكمة

في هذه المرة، كانت اللجنة مجتمعة عندما وصلت في موعدي، وأدخلني الحارس المعجوز على الفور.

وجدت أعضائها — فيما عدا القصير بطبيعة الحال — يجلسون خلف الطاولة الطويلة التي وضعت بعرض القاعة، وبنفس الترتيب الذي رأيتهم عليه في المرة السابقة، يتوسطهم المعجوز المتهالك، ضعيف السمع والبصر.

ولفت نظري جو الحداد الضخم الذي تحبل في الشارات السوداء المشبوكة في ياقات ستراتهم وأكاييل الزهور المصفوفة على جانبي القاعة، تحيط بكل منها لفافة من القماش الأسود اللامع، وتعلوها بطاقة عريضة باسم مرسلها، في حروف بارزة.

جعل أعضاء اللجنة يفرسون في، وهم يقبلون بين أوراق الملفات الموضوعة أمامهم، بينما كنت أطلع في فصول أسماء المعزين. وتبينت في مقدمتها الرئيس الأميركي كارتر والسيدة الأولى زوجته، ونائبه والتر مونديل، ومستشاره للأمن القومي بريجينسكي. كما قرأت أسماء المستشار السابق كيسنجر، وعدد من الرؤساء السابقين للولايات المتحدة مثل نيكسون و فورد، بالإضافة إلى روكفلر وروتشيلد، ورئيس البنك الدولي ماكنارا، ورئيس الكوكاكولا العالمية، ورؤساء شركات الأسلحة واللبان (العلكة) والأدوية والأجهزة الكهربائية والالكترونية والبترو، وفرنسا والمانيا الغربية والمجلترا وإيطاليا والنمسا، ومرسيدس وبيجو وفيات وبندهورد وبوينج، وامبراطور اليابان.

ولم أجد صعوبة في العثور على أسماء رئيس الوزراء الاسرائيلي بيجين، ووزيره دايان ووايزمان، ورؤساء الحكومات العسكرية في شيل وتركيا وباكستان واندونيسيا والفيليبين وبوليفيا، ورئيس زائير موبوتو، والملوك والرؤساء العرب، وأفراد أسرة شاه ايران السابق، وماما دوك السيدة الأولى في جزر تاهيتي ورؤساء الصين الشعبية ورومانيا وكل من كوريا الشمالية والجنوبية وقادة الشعب الاسترالي.

وكانت ثمة أسماء كثير من الشخصيات اللامعة في العالم العربي، من رؤساء للأحزاب القاندة، وكبار المسؤولين عن الأمن والاعلام والدفاع والتخطيط والتعمير، وعملاء الشركات الأجنبية، فضلا عن ألمع الدكاترة، وبينهم مواطني المعروف.

وإذ وجهت اتهامي أخيرا الى أعضاء اللجنة، شعرت أن تغييرا ما لم أتبن كنهه، قد طرأ عليهم منذ آخر مرة رأيتهم فيها. وتضاعفت حيرتي وأنا أنقل البصر بينهم، ملتصقا بالتفسير لما شعرت به. فلم تكن الجبهة التي تملو وجوههم بالأمر الجديد على. وقد عرفت فيهم — رغم العيونات السوداء على وجوه أغلبهم — نفس الأشخاص الذين التقت بهم مرتين قبل الآن.

ومع أي فشلت — للمرة الثالثة — في احصاء عددهم، من جراء عجزتي عن التركيز، إلا أنني كتبت موقفا بأنه لم يزد أو ينقص، اللهم إلا فيما يتعلق بالقصير، الذي كان مقعده الخالي — الى جوار العجوز — مجللا بالسواد، بمثل ما كانت صورته المعلقة فوق الجدار، إشارة الى ما انتهى اليه الأمر.

ولم اكتشف السر إلا بعد ان تطلعت الى العانس عدة مرات. فقد تبينت أخيرا ما غاب عني في البداية، إذ كانت ترتدي الملابس العسكرية ذات الشارات الحمراء الموشاة بالذهب.

ولعل تأخري في هذا الاكتشاف يرجع الى أنني ألفت أن أرى بين أعضاء اللجنة ثلاثة من العسكريين، وقد سجل لا شعوري هذا العدد من اللحظة الأولى، فاكفيت بذلك، ولم أول اهتماما لأشخاصهم، شعورا مني بأنهم جميعا — بسبب ملابسهم — متماثلون.

أما الآن فقد دقت النظر الى العسكريين الآخرين حتى تأكدت من جنسيتهما، ومن شخصيتهما. وبحت عن الثالث حتى وجدته بعد مشقة بسبب التغيير الذي أضفته الملابس المدنية على هيأته.

أثارت هذه الظاهرة فضولي، فانطلق عقلي الذي درته أحداث العام الأخير على استكناه الألغاز والغوامض، يحاول إيجاد تفسير لها.

كان اعتقادي في السابق أن اللجنة مختلطة مدعسكرية. لكن استبدال الملابس بالصورة التي رأيتها اليوم هز هذا الاعتقاد من أساسه، فلم يكن يعني سوى أحد أمرين :

اما ان اللجنة تتألف كلها من عسكريين يرتدي بعضهم الملابس المدنية أحيانا، أو مدنيين يرتدي بعضهم الملابس العسكرية أحيانا.

وفي كلتي الحالتين لم يكن ثمة مغزى للاستبدال. حقا أن التخلي عن الملابس يمكن أن يعتبر مؤشرا على انكماش الروح العسكرية في اللجنة، أو تخلصها، وهو الامل الذي داعبني لحظة خاطفة بالنظر الى ما اشتهر عن العسكريين من فسوة وابلاغ في الدماء، وقوى منه ارتداء العانس لها، طالما أنها — بحكم انوثتها (رغم احباطها) — أكثر انسانية. لكني لم البث ان رأيت في الاستبدال — لهذا السبب بالذات — تأكيدا للطابع العسكري بدلا من أن يكون تخفيفا منه.

انتزعتني رئيس اللجنة من تأملاتي اذ نطق بصوت رصين شابه رنة أسي، فقال بلغة اللجنة :

« نستهل عملنا اليوم بالوقوف خمس دقائق حدادا على الفقيد ».

ازاح الأعضاء مقاعدهم الى الخلف ونهضوا واقفين. اما انا فلم اتحرك من مكاني، لانني كنت واقفا، فاللجنة لا تسمح لأحد بالجلوس في حضرته.

رفعت عيني الى صورة الفقيد المعلقة على الجدار، خلف الرئيس، وثبتتها على عينيه، مشاركة مني لأعضاء اللجنة في مشاعرهم. وركزت ذهني طوال الدقائق الخمس التي تابعت ببطء شديد، في محاولة مغلصة لتذكر الطريقة التي كان يحركهما بها، كل واحدة في اتجاه، أثناء حياته الحافلة.

تنتح الرئيس عدة مرات، كأنه يقوم بشحن البطارية التي سيعمل بها صوته ثم انطلق يقول، موجها حديثه الى زملائه بينما كان يتطلع الى أكابيل الزهور، كأنما يخاطب في الحقيقة مرسلها :

« حضرات الأعضاء الموقرين. هذه احدى المرات النادرة التي تتعقد فيها لجتكم لتبحث أمرا يخرج عن مألوف عاداتها. وفيما يتعلق بالفقيد فانها المرة الثالثة التي تجتمع فيها بسببه. واذا لم تخنني الذاكرة فان المرة الأولى كانت في منتصف الخمسينات، عندما قررنا ضمه الى اللجنة. وما زلت أذكره كما كان وقتذاك، مثلنا شبابا وحيوية. أما المرة الاخرى فكانت في العام قبل الماضي، عندما احتفلنا بفوزه بجائزة النسر الذهبي، تقديرا لجهوده في خدمة أهداف اللجنة ».

« والواقع ان الفقيه لعب دورا هاما في الاعداد لكثير من التحولات الرائعة التي تحدث حولنا، وفي صياغة الشكل الذي تحققت به .»

« وبفضل هذا الدور تفتح اليوم — من جديد — الامكانيات التي تراءت في الخمسينات ثم قبرت في الستينات وأوائل السبعينات، لتحقيق أحلام البشرية والقضاء على كافة المخاطر التي تهدد النوع الانساني .»

« ونحن نشير بذلك الى الحلم القديم، وهو حلم الوحدة الارضية، أو الولايات المتحدة الأرضية، حيث يندمج سكان الكوكب جميعا في دولة متجانسة، تحقق لهم الرخاء وتشد لهم الحياة الأفضل.

« وهذا يبين عمق الخسارة التي أصبنا بها، وأصببت بها قضية الحضارة والتقدم، وقضايا الاشتراكية والسلام والديموقراطية .»

توقف لحظة ليترك للحاضرين فرصة تمثل الاستنتاج الذي توصل اليه، ثم استأنف حديثه :

« لقد حرصنا في كل أعمالنا على أن نبقى بمنأى عن أي ارتباط مباشر بالأجهزة الرسمية، والسلطات التنفيذية، رغم الشائعات التي طاردتنا، والتي كان لها أساس من الصحة في بعض حالات معدودة، مست المبدأ المذكور، وان كانت في الحقيقة تدعيما له.

« ونحن نواجه الان حالة مماثلة أرغمتنا، بسبب من خطورتها، على ان نتصدى لمعالجتها. فلا يخفى عليكم ما لها من دلالات بالنسبة للمستقبل.

« ومما يضاعف من دقة الأمر، ما تتعرضون له من مشقة وعنت بالنظر الى أنكم تواجهون الان، مباشرة، اليمين المضرجتين بدماء أحد زملائكم .»

سرت همهمة غاضبة بين الأعضاء الذين لم يرفعوا عيونهم عن طول الوقت، وألفت نفسي مدفوعا الى الكلام، وعلى غير ما توقعت خرج صوتي مهتزا بكلمات غير التي كنت قد أعددتها.

قلت : « أرجو أن يتسع صدركم لي كي أسط لكم وجهة نظري. واني واثق أنكم من السماحة والكرم بحيث تسمحون لي أن أتحدث باللغة العربية كي أحسن التعبير عن نفسي. وتأكدوا أني أشارككم الألم لخسارتكم، فهي خسارة لنا جميعا .»

خاطبني الأشقر في حدة :

«ستكلم عندما نأذن لك .»

تناول العجوز رشفة ماء من كوب أمامه ثم استطرد :

لقد وضعت اللجنة نفسها منذ البداية في خدمة الأهداف الثورية، والمباديء الاخلاقية، والقيم الدينية. وساند أعضاؤها كل ما من شأنه دعم المقومات الاساسية، وتعميق الممارسات الحرة.

وطبيعي أننا أثروا بذلك حفيظة عناصر الشر والهدم التي لم تأل جهدا في مقاومتنا. وأشير في هذا الصدد الى ما أثير من ضجة مفتعلة حول الاساليب التي نستخدمها في عملنا، والى الاتهامات التي اغدقت علينا، بالسادية حيناً، وبالديماغوجية حيناً آخر.

وقد حاولت هذه العناصر دائما ان تربط بيننا وبين الانقلابات السياسية والمذابح الطائفية والحروب الصغيرة، الدائرة على قدم وساق في العالم العربي، بل وبعض حالات الانتحار الغامضة، وحوادث متفرقة لأشخاص اختفوا نهائيا دون ان يعثر لهم على أثر، وآخرين سقطوا من أسطح البنايات، أو قتلوا في حوادث عرضية للسيارات.

الا أن الاعتداء على زميلنا يمثل تطورا بالغ الشأن في هذه النشاطات، الأمر الذي يتطلب منكم اهتماما خاصا. فإذا ما بدت مهمتكم يسيرة لأن المجرم مائل أمامكم ومقر بما ارتكبه من أثم، فإن هذا ليس سوى خداع السطح البراق، وواجبكم هو ان تنفذوا الى الاعماق.»

بدت على المعجوز علامات الارهاق، وهو يتراجع الى الوراء في مقعده، كأنما يفسح المجال لزملائه. وكانت العانس العسكرية هي أول من تكلم منهم فخطبتي قائلة :

« يمكنك الان أن تتكلم.»

كان صوتها رقيقا، لكنه لم يخف ما يكمن بين طياته من صرامة ضاعف منها اشارتها الى رد الأشقر علي، بما يتضمنه التأييد لحدته.

والواقع أنني كنت شديد الانتباه لنظرات العيون، وإيماءات الرؤوس، ونبرات الأصوات، وبالاختصار كل بادرة يمكن أن استشق منها ما ينتظرنى من مصير.

وليس معنى ذلك أن الشكوك كانت تساورني بشأنه. فقد هيأت نفسي قبل مجيئي لأسوأ الاحتمالات اذ أني لم أنكر شيئا منذ البداية ولم أحاول تبرير فعلتي. ومن ناحية أخرى فإن الندم لم يساورني اذ غشيتني قناعة بان ما حدث كان لا بد أن يحدث.

هكذا أعددت دفاعي على صورة اتهام موجه الى اللجنة. واخترت له كلمات قوية. فما دامت النتيجة محتومة، فلا بأس من الاحتفاظ بكرامتي، ومواجهة المخطوم في ابناء وشهم.

لكني لم أكد أواجه اللجنة واستمع لكلمات رئيسها حتى تبخرت صلابتي، وخرج صوتي مهتزا ضعيفا، وأنا الذي خططت له أن يدوي في القاعة ثابتا، شامخا. اتهاميا.

قلت بصوت يذوب رقة، مستخدما لغة اللجئة :

« اني أشكر لكم هذه الفرصة التي أحتتموها لي كي أتحدث أمامكم. وأحب أن أؤكد مرة أخرى ادراكي لعمق الخسارة التي حاقت بكم. فاللجنة لا تفقد أحد أعضائها كل يوم (وانسمت بالرغم مني، لكنهم بالطبع لم يشاطروني الإلتسام).

« وأصدقكم القول باني عندما جئت اليوم لم أكن أفكر في الدفاع عن نفسي. فانا مفر بما فعلته، وقابل لكافة النتائج المترتبة عليه. ومع ذلك فكل أمل أن يشفع لي تاريخي وسلامة طويتي والظروف التي أحاطت بي.

« واعتقد انكم تعرفون جيدا أنني لم يسبق أن اقدمت على عمل من أعمال العنف. فانا مجرد انسان عادي، يؤثر السلامة قدر الامكان، وتلك الاعمال الجسورة التي يتحدث عنها الاخرون ويتباهون بها، ليست بالنسبة لي غير مادة للقصص والروايات.

« وعندما مثلت أمامكم أول مرة، لم يكن لي من غرض سوى أن أنال رضاكم، اذ تبينت انه الطريق الوحيد لتطوير مواهبي والبرهنة عليها، خاصة وان أفضل أصحاب المواهب قد سبقوني للمثول أمامكم.

« واذا كانت التطورات التي جرت بعد ذلك تعود اساسا الى شفهي بالمعرفة، فان ما صدر مني في حق زميلكم — أو على الأصح في صدره — لم يكن غير رد فعل طبيعي لانسان بسيط في حالة دفاع عن النفس.»

قاطعتني الرئيس قائلا :

« لكنك قررت — عقب الجريمة مباشرة — انه لم يهاجمك أو يتعرض لك بالأذى.»

قلت : « هذا صحيح. لكنه كان يحمل مسدسا. ولهذا فاستخدام العنف ضدي كان واردا منذ البداية. ومن المؤكد اني لو لم ابادر بالقضاء عليه فانه ما كان سيتركني في سلام. على أي لا اريد ان اذاع عن موقفني. وما أبقيه هو ان تضعوا في تقديركم حالتي نفسية والعصية، وكوني لم أتم على الاطلاق أثناء وجوده معي، فضلا عن الحصار الذي فرضه علي.»

انحنى الأشقر الى الأمام وتطلع إلي بعينين ملونتين قاسيتين ثم قال :

« اذن فانت تريد ان نقبل صورة البريء سليم النية التي تحاول ان تبيعها لنا؟ »

كان يعتمد في حديثه دائما — كما لاحظت — أن يستخدم التعبيرات المميزة للغة اللجئة، وهي تعبيرات كانت تثير اعجابي.

قلت : « أنا لا أبيع شيئا، رغم أن البيع والشراء هذه الأيام شملا كل شيء، كما أكدت في الدراسة التي قمت بها عن « الدكتور ». أنا أقرر الحقيقة.»

ضحك ساخرا : « لعلك تظننا من السذج. يجب أن تعرف أننا أدركنا من اللحظة الأولى لوقوفك أمامنا أنك تظهر غير ما تبطن. فقد كانت اجاباتك على الاسئلة التي طرحناها عليك دقيقة وموقفة، مما أثار شكوكنا.

« وإذا كان بيننا من ظل مترددا في القطع بأمرك، فانه حسم رأيه عندما اتخذت من الدراسة المطلوبة منك ذريعة لنبش تاريخ الدكتور وجمع المعلومات عنه، واصررت على المضي في هذا العمل رغم التحذيرات المختلفة التي وجهت اليك.»

وجه حديثه الى أعضاء اللجنة واستطرد :

« ان كل الدلائل تؤكد أننا نواجه مؤامرة كبيرة، حيثك خيوطها بمهارة وخبث شديدين منذ بعض الوقت، وليس الاعتداء على حياة الفقيه سوى حلقة من حلقاتها.»

انزعجت كثيرا لكلام العضو الأشقر، فها هي الامور تتخذ اتجاها مفاجئا لم يخطر لي ببال، ولن يؤدي الا الى مزيد من الاساءة الى موقفي.

سارعت بالقول وأنا اتصاحك مبديا كل ما استطع من مظاهر البراءة والطيبة والغفلة :

« سيادتك تملك خيالاً نشيطا ولا أظنك تتكلم جادا.»

قال بحدة : « لن تجديك المزاوغة.»

قلت : « أوكد لك أني بريء.»

قال مستكبرا : « وتراجع أيضا عن اعترافاتك؟»

قلت : « لم أقصد تبرئة نفسي من ... أقصد انه لا توجد ثمة خطة، واذا وجدت فليس لي بها علم.»

قال بلهجة المنتصر : « آه... ها انت تقر بوجود خطة.»

قلت فرعا : « أبدا. لقد اردت فقط أن أوكد مرة أخرى...»

أشار الى عضو يجلس في طرف الطاولة، فتناول هذا جهازاً للتسجيل من تحت الطاولة ووضعه فوقها.

قال الأشقر مخاطبا أعضاء اللجنة :

« سأريكم الآن أيها السادة كيف أنه أقر — بلسانه — بوجود شركاء له.»  
أدار العضو الجهاز فسمعت صوتا غريبا لم ألبت أن ميزت فيه صوت تدفق المياه وارتطامها بسطح صلب. ثم تكلم رجل معربا عن دهشته من لون المياه الاسود. وعرفت فيه القصير فارتعدت.

سمعت صوتي يقول : « لا بد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟»

ثم صوت القصير مستغنيا : « وكيف عرفت ؟ »  
وأخيرا صوتي : « لقد عرفت أشياء كثيرة في الآونة الاخيرة ».

أولاً الأشقر لمدير الجهاز فأوقفه وخاطبني ساخرا :  
« أليس هذا صوتك ؟ »

قلت : « أجل.. لكن هذا لا يعني ... »

لم يدعني أواصل كلامي وصاح :

« كيف أتى لك ان تعرف هذه المعلومة التي لا نعرفها نحن عن زميلنا الا اذا كان  
لك شركاء يمدونك بالمعلومات ؟ »

تدخلت العانس في الحديث قائلة :

« ليس من الضروري ان تكون المؤامرة قائمة منذ البداية. فربما ولدت في وقت  
لاحق. وهذا ما تدل عليه اشارته الى أنه عرف أشياء كثيرة في الآونة الاخيرة.

ووجهت إلي الحديث مستأنفة : هذا أفضل لك، لانه يعني أنك كنت سلم النية  
في البداية ثم وقعت تحت تأثير العناصر الهدامة والمخرقة. فاذا ذكرت لنا أسماءهم، ربما  
كان لذلك أثر في تخفيف الأمر بالنسبة لك.

ضغطت يدي في يأس وأنا أقول في صوت جاهدت لأجعله ناطقا بالصدق :

« أرجوكم ان تصدقوني. لقد وقع كل شيء بمحض الصدفة ».

سألني أحد الأعضاء : « لم يمدك أحد بالسكين التي استخدمتها ؟ »

أجبت : « أبدا. لقد كانت موجودة، كما ذكرت من قبل، في المطبخ ».

سألني عضو آخر :

« كيف أتى لك ان تعرف تلك الأشياء التي أشرت اليها ؟ »

أجبت : « من الصحف ».

ضحك العضو وتطلع الى زملائه كأنما لا يصدق ان تكون الصحف مصدرا للمعرفة.

قلت موضحا : « لقد اضطرني بحثي عن الذكور الى مراجعة أعدادها على مدى  
ربع قرن. ومكنتني هذا من رؤية الوقائع والاحداث في ترابطها والوصول الى استنتاجات  
قيمة يسرت لي تفسير كثير من الظواهر المعاصرة .

مال أحد المسكرين فجأة الى الأمام وقال :

« هل لك ان تحدثنا عن هذه « الظواهر » كما تسميها؟

قلت في اعياء : « اعتقد ان اجابتي على هذا السؤال، الذي سبق ان وجهه الى الفقيه، موجودة في الأوراق التي أمامكم، بالنظر الى كفاءة الاجهزة التي تملكونها » .

قلب في عدة أوراق أمامه وهو يقول :

« أجل .. أجل .. لدينا هنا بضع أمور .. الامراض النفسية والسيجارة المصرية .. مياه الحنفية .. الادوية الاجنبية والكوكاكولا .. لكنك لم توضح لماذا تعتبر هذه الامور دون غيرها ظواهر جديدة بالالتفات ؟ »

قلت : « لم أقل هذا أبدا . لقد ذكرتها في معرض الاستشهاد بأمثلة . فالظواهر المماثلة لا تعد ولا تحصى » .

قال : « لقد تجبست الحديث لما تبيته بصددها، كما انك أشرت الى العلاقة بينها دون ان توضح ما تعنيه بذلك » .

فكرت بسرعة حتى وصلت الى قرار، فقلت بلهجة من استبان أخيرا ان الصدق والصراحة التامة هما أسلم وسائل الدفاع :

« سأتحدث بصراحة كما أثبت لكم صدق نيتي وسلامة طويتي . والواقع أني ضحية لظموشي من ناحية وشغفي بالمعرفة من ناحية أخرى . ولولا الحاصية الاخيرة بالذات ما وقفت هذا الموقف الان » .

قاطعني العسكري قائلا :

« الأفضل ان تطرق الموضوع مباشرة » .

قلت : « لقد أردت فقط أن أوضح كيف انسقت الى التفكير في هذه الامور والبحث عن تفسير لها . الا أني سرعان ما تبينت أن تناول إحداها بمعزل عن البقية لن يؤدي بي الى شيء . والنتيجة ذاتها تنتظرنى اذا ما تناولتها جميعا، من خلال العلاقات المتبادلة بينها، دون أن يكون لدي المنهاج السليم للبحث .

« وهكذا توصلت الى نقطة البدء، وهي العثور على المنهاج الذي يصلح لتفسير كل ظاهرة على حدة، وكافة الظواهر في علاقاتها بعضها ببعض » .

بدا على وجوههم الاهتمام، وأدركت أنني اثرت فضولهم الى أقصى حد، فتابعت :

« أقبلت أجرب كافة المنهاج المعروفة دون أن أصل الى شيء . وذات يوم كنت أفكر في الامر عندما قلت لنفسي : إن مشكلة هذه الظواهر والالغاز أنها لاتتصل بمجال واحد من مجالات الحياة، وإنما تمتد الى مجالات متنوعة ومعنى هذا ان « التسوع » هو طابعها الاساسي .

« وهنا تذكرت احدى النتائج الهامة التي توصلت اليها في بحثي عن الدكتور، وهي مساهمته في تطوير اللغة العربية بابتكار اشتقاقات جديدة من كلمات عادية، منها ذلك المصطلح الفذ : «التسوع» . ففيه وجدت ضالتي » .

تحدث العضو البدين لأول مرة، وهو الذي كان يرتدي سترة بيضاء في مقابلي الأولى باللجنة، وقد استبدلها الآن بأخرى من القطيفة الحمراء.

« هل يمكن ان تعطينا مثالا لما تعنيه ؟ »

أجبت : « هذا ما كنت انوي أن أفعله حالا . وسأخذ لثالي موضوعا مألوفاً لنا جميعاً وهو الكوكاكولا . فهناك الكثير من الظواهر الغامضة التي ترتبط بتطور هذه الزجاجاة الشهيرة .

وعلى سبيل المثال، فقد قرأت عن حملة واسعة ثارت في الولايات المتحدة عام 1970 حول سوء معاملة ربع مليون من العمال الموسمين في المزارع التابعة لشركة الكوكاكولا . أقول المزارع لا المصانع . وقد انتقلت هذه الحملة الى التلفزيون ومنه الى قاعات الكونغرس . وقام السناتور والتر مونديل، عضو لجنة العمال الموسمين به، في ذلك الوقت، باستدعاء رئيس الكوكاكولا ليجيب رسمياً على الادعاءات الموجهة الى شركته، أمام مجلس الشيوخ الأمريكي .

« ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان رئيس الكوكاكولا يشارك في اختيار مونديل هذا لعضوية اللجنة الدولية التي حدثكم عنها في لقائنا الأول، ثم ليكون نائباً للرئيس الأمريكي كارتر .

« وفي نفس الوقت الذي نجدها مهمة بابتزاز حفنة دولارات من عمالها، نقرأ أنها خصصت مبالغ طائلة للأعمال الخيرية والثقافية التي تمتد من ادارة جامعة كاملة الى جائزة هامة للابداع الفني والأدبي، ومنحة ضخمة قدمتها عام 1977 لمصحف بروكلين الأمريكي ليعمل على انقاذ آثار الفراعنة المصيرين من الانهار .

« وبينما تمثل مياه الحنفية المنافس الوحيد لها الان (فهي توزع 200 مليون زجاجاة يوميا في العالم حسب احصائيات عام 1978)، نراها ترعى مشروعاً لأزالة ملوحة البحر تقوم به شركة « أكواشيم » التي اشترتها الكوكاكولا قبل عدة سنوات وبالتحديد عام 1970 .

« أثارت هذه المتناقضات حيرتي فقامت بأبحاث عدة علمت منها أن شركة الكوكاكولا ظلت منذ نشأتها أمانة لمبدئين أساسيين وضعهما مؤسسوها العظام . المبدأ الأول هو أن يصبح كل مشترك في مغامرة الكوكاكولا غنياً وسعيداً . والمبدأ الثاني هو أن يقتصر نشاطها على انتاج سلعة واحدة هي الزجاجاة المعروفة .

« لكن رياح التغيير التي هبت في أوائل الستينات، أرغمتها على الاختيار بين المبدئين . ولكي لا تضحي بالمبدأ الأول، فضلت أن تقوم بتبوع منتجاتها . فبدأت بانتاج أنواع أخرى من المياه الغازية، ثم مدت نشاطها الى زراعة الموالخ والبن والشاي، وأصبحت لها مزارع واسعة في نفس الولاية التي ولدت بها، وهي ولاية جورجيا، تجاور مزارع الرئيس الاميركي كارتر . وربما كان هذا الجوار هو المسؤول عن تمادياها في سياسة التبوع بالاشتراك في الأمور العامة، المحلية والدولية .

« ولاشك في أن النجاح كان من نصيب هذه السياسة. ويكفي الإشارة في هذا الصدد الى عودة الزجاجة العتيقة الى كل من الصين ومصر بمبادرة وطنيين شجعان، ذوى مبادئ، في البلدين.

« غير أن هذا النجاح تمخضت عنه ظاهرة غريبة. فمع استخدام الوسائل الحديثة وتقليل تكلفة الانتاج بالاعتماد على عمال موسمين ذوى أجور منخفضة، أصبحت الكوكاكولا من أكبر منتجي الفواكه الطازجة في العالم الغربي. لكنها وجدت نفسها للأسف مرغمة على القاء جانب كبير من هذا الانتاج في البحر كي لا ينهار السوق العالمي.

ولم يكن من حل لهذه المشكلة الا بمزيد من التنوع. فاستغلت امكانياتها الضخمة وخبرتها بميدان الزراعة، في رعاية عدد كبير من مشروعات الامن الغذائي بالبلاد المتخلفة، منها مشروع لزراعة البقول في «أي ظبي» تقوم به شركة «أكواشم» التابعة لها. كما قامت بأبحاث واسعة لانتاج شراب غني بالبروتينات والعناصر المغذية الاخرى، تعوض به المستهلكين عن الفائض الذي تضطر لالقائه في البحر».

توقفت لحظة ريثما بلغت ريفي ثم استطردت :

« هكذا ترون أيها السادة، كيف ان التنوع يصلح — في حالة الكوكاكولا — مفتاحا لفهم أغلب الظواهر المرتبطة بها. وقد وجدت بالبحث أن هذا المفتاح قادر على فك مغاليق أخرى كثيرة.

« إن نظرة واحدة للواقع العربي تكفي للبرهنة على صحة قولي. فهي تكشف لنا من الوهلة الأولى عن ظاهرة «التنوع» في أشكال الأنظمة (وهو بالتأكيد مخطط له بالنظر الى أن هذه الأنظمة لا تختلف عن بعضها في الجوهر) وفي وسائل العمل السياسي، وشعاراته وأهدافه.

« ففي وقت من الأوقات، كانت هذه الأنظمة تتوجه الى شعوبها بوسيلة اقناع واحدة لا تتغير هي السجن والتعذيب. لكن التنوع أضاف اليها أساليب أخرى متنوعة من التصفية الجسدية الى التليفزيون والمجالس النيابية.

« وفي وقت من الأوقات، كانت الأنظمة ترفع شعارات أساسية لا تتغير، لكنها أدركت أخيرا أهمية تغيير هذه الشعارات بين الحين والآخر وتنويع الاهداف والتحالفات والعداوات.

« وبفضل سياسة «التنوع» اتسعت الإرتباطات الوحودية لهذا البلد — والتي كانت قاصرة في الماضي على بقية الشعوب العربية — لتشمل الان الشعوب الاسترالية الصديقة.

« وبفضلها توفرت للمصريين الاسلحة الاميركية والانجليزية والفرنسية والايطالية

والألمانية التي حرموا منها طويلاً. وبعد أن كان السوق المصري قاصراً على سيارة واحدة يتم تجميعها في المصانع المحلية هي سيارة نصر «فيات»، امتلاً الآن بالماركات العالمية المختلفة، تأتي سياراتها مباشرة من مصانعها الأصلية.

« وبعد ان كانت مشاريع الاسكان قاصرة على خدمة الطبقات المحدودة الدخل، تقدم لها مجمعات متماثلة الشكل والحجم، اتسعت الان لتشمل كافة الطبقات، واكتسبت تنوعاً شديداً يمتد من المقابر الى الابراج الفاخرة.

« وتصلح السيجارة المصرية نموذجاً لعرض وتفسير الظواهر المختلفة، الغامضة أحياناً، والتي تصاحب عملية شديدة التعقيد مثل عملية التبوع. فأنتم تعرفون — ولا شك — قوة العادة وسطوة الادمان. وقد بلغ تعلق المصريين بسيجارتهم المحلية أوجه في الستينات، عندما منعت السجائر الأجنبية، وأمكن توحيد عدد من السجائر المحلية في سيجارة واحدة، هي التي عرفت باسم البلمونت، نالت توليفتها رضاء الأغلبية.

« وهي العقبة التي واجهتها عملية التبوع في ميدان السجائر. وتطلب التغلب عليها جهوداً مضيئة في اتجاهات متعددة، تعددت نتيجة لها فترات الاحتفاء المفاجيء للسيجارة المصرية، مما أجبر المستهلك على تلمس بديل أجنبي لها.

« ومن السهل أن نرى في صدمة هذا الانتقال الاجباري المفاجيء، علة للإصابة بمرض الاكتئاب النفسي، خاصة وان السجائر الاجنبية تباع بضعف ثمن السيجارة المحلية.

« ولما كان استهلاك السجائر في البلاد المتخلفة أوسع منه في غيرها (فالاخيرة تحظر الاعلان عنها كما تنبه مواطنيها الى العلاقة بينها وبين الاصابة بمرض السرطان وتقدم لهم تمعاً أخرى بديلة ومتنوعة) يكون الاكتئاب الناشيء أكثر عمقا وأصعب في العلاج، مما يدفع شركات الادوية الاجنبية إلى أن توصي أبناء البلاد المتخلفة باستخدام جرعات أكبر من العقاقير العظيمة المضادة لهذا المرض.

« وهو ما يخلق مشكلة جديدة تتمثل في الادمان على هذه الادوية. الا أن التبوع، نفسه يقدم الحل لهذه المشكلة. فليجأ الطبيب الى تغيير الدواء باستمرار اثناء فترة العلاج، ويساعده في هذا التنوع الذي تتميز به هذه العقاقير.

« ومن ناحية أخرى فان الاكتئاب نفسه هو في أغلب الاحيان بمثابة مفترق طرق يؤدي بعضها الى العنة الجنسية أو الصحوة الدينية أو فتور الهمة والقذارة، أو الخبل.

« هكذا ترون أيها السادة، كيف أن منهج التبوع يصلح لتفسير ظواهر كثيرة في حياتنا المعاصرة، وللربط بينها في سلسلة متينة الحلقات.»

تكلم أحد الأعضاء بلهجة مترددة وهو يتطلع الى الأشقر بين الفينة والأخرى :

« لقد عرضت وجهة نظرك بأسهاب ووضوح.. لكن ثمة ما أريد أن أفهمه.

أقصد أنك لم تتعرض لموضوع مياه الحنفية.»

أجبت على الفور بلهجة تشي بالاعجاب :

« لقد أحسنت يا سيدي بإثارة هذا الموضوع لأنه يتميز بأهمية خاصة لكافة المشتغلين بالأبحاث العلمية. فهو يعطينا مثالا كلاسيكيا للاخطاء التي يمكن أن يتورطوا فيها.

« فقد أغرتني معرفتي بمحجم التوزيع العالمي لزجاجة الكوكاكولا من ناحية، وبأن الشعب المصري من الشعوب المدمنة لاستخدام مياه الحنفية في الشرب (على عكس الشعوب المتحضرة عموما) من ناحية أخرى، على الربط بين عودة هذه الزجاجة الى مصر وظاهرة قلة مياه الحنفية واختفائها تقريبا بالنهار فضلا عن دكئة لونها وميله الى السواد.

« الا أني لم ألبث ان اكتشفت أن الظاهرة المذكورة سابقة على عودة الكوكاكولا بسنوات. وبالبحث وجدت أن الحنفية ظلت منذ الستينات المصدر الوحيد لمياه الشرب الى أن طبقت سياسة التوزيع وظهرت المياه المعدنية المستوردة. واكتشف أن التغير الذي لحق بمياه الحنفية قد بدأ منذ تلك اللحظة، مما يتفق مع النتائج التي توصلت اليها في حالة مماثلة هي الخاصة بمصير السجاجة المصرية.

« على ان الوقوف عند احدى النتائج والقناعة بها، من المخاطر التي يواجهها الباحثون عادة. فمواصلة البحث، مهتديا بالمنهج ذاته، أمكنني التوصل الى رؤية أعمق تكشف أيضا عن الترابط بين عدد من الظواهر.

« ذلك ان مشروعات شركة الكوكاكولا لري الصحارى ظلت لفترة طويلة قاصرة على مجال واحد هو ازالة ملوحة مياه البحر. وقد اتاحت لها حرب الكوبر (تشرين) فرصة ذهبية لتوزيع وسائل عملها، باستخدام مياه النيل، في ري صحراء النقب، وهو ما تيسر بفضل الأنفاق المائلة المحفورة أسفل قناة السويس. ومن الطبيعي أن يؤدي مثل هذا التوزيع الى قلة المياه المناسبة من الحنفيات، كما ان انخفاض التخزين نتيجة للسحب المتزايد هو المسؤول عن تسلل الشوائب الى المياه وتغير لونها.»

خاطبني الأشقر بلهجة ظافرة :

« وترهدنا ان نصدق انك عرفت كل هذه الأشياء بمجهودك الخاص عن طريق الصحف.»

أجبت : أجل.

تكلم العسكمدني والمدنسكري لأول مرة، وكان يضع باروكة واضحة على رأسه، فخاطبني في لهجة حازمة :

« من الخير لك ان تدلي على الفور بأسماء شركائك والتفاصيل الكاملة للمؤامرة قبل أن نجبرك على ذلك. فنحن قادرون على فك عقدة لسانك. حقا أننا لا نغفل — بحكم

الماديء الانسانية التي نسترضه بها — إلى الالتجاء هذا السبيل. الا أن للضرورة أحكامها».

مالت العانس نحوي وقالت في رقة :

« لا أظن أننا سنضطر الى ذلك. فهو سيتكلم حالما يتبين مصلحته».

هبط قلبي بين قدمي وقلت :

« أنا أعرف الوسائل التي تشيرون اليها، ومن المؤكد أنها ستضطرني للاعتراف بأي شيء. لكن ما سأعترف به في هذه الحالة — لن يكون هو الحقيقة أما انتم فستظلون دائما في حيرة من أمري».

وان الصمت على القاعة وجعلوا يتبادلون النظرات. وأدركت كما يقولون بلغة اللحنة — أن القذيفة التي أطلقتها في الظلام قد أصابت مقتلا.

مال الأشقر على الرئيس وتبادل معه الهمس. وأخيرا تكلم الأخير :

« ربما كان من الأفضل ان تنفرد بنفسك قليلا لتتروى في الأمر. يمكنك أن تخرج الان، وستدعيك بعد قليل من الوقت لتعرف ما توصلت اليه».

أدركت انهم يريدون التخلص مني ليتشاوروا في حرية. ففادرت القاعة ووقفت الى جوار حارسها المعجوز. وقدمت اليه سيجارة فتناولها في صمت ووضعها خلف أذنه، بينما أشعلت أنا واحدة استشقت انفاسها في لهفة.

كان الدهليز خاليا، يأتيه الضوء من نافذة كبيرة بالجدار المقابل، تطل فيما يبدو على فناء مهجور ودخنت وأنا أسترق النظر الى الوجه الوداع المستسلم للحارس الجالس الى جوارى. وتمنيت لحظة أن أكون مكانه، متمعا بنفس الاستسلام والوداعة. ثم خطر لي أن حالته قد لا تكون طبيعية وانما من تأثير مخدر ما.

وسواء كان هذا هو السبب، أو أنه أدرك حرج موقعي، فانه لم يرد على عندما حاولت أن أجاذبه الحديث شاكيا من حرارة الجو.

فرغت سيجارتي، فألقيت بيقيتها في منفضة نحاسية الى جوار الباب، واعتمدت بظهري على الحائط. كنت عاجزا عن التفكير، فرحت أنظر أمامي عبر النافذة، شاعرا أنني اتطلع في الفراغ.

وبعد حوالي نصف الساعة، نهض الحارس فجأة، كأنما بلغته رسالة سرية، فاخفى داخل القاعة، ثم ظهر على الفور وأشار لي بالدخول.

دخلت في وجل وأنا أقدم رجلا وأزخر أخرى. ووقفت أمام العيون التي حدقت وأحدقت بي.

خاطبتي العانس في رقتها المعهودة : « ماذا قررت ؟ »

قلت : « ليس لدي ما أضيفه سوى أن أرجوكم تقدير الظروف السائدة غير الطبيعية التي أحاطت بي » .

قالت في حدة وشراسة مفاجئتين : « أنت وشأنك إذن » .

أزاح الرئيس جانبا بضع أوراق أمامه وتكلم ببطء :

« ان موقفك المتصلب يجعلنا لا نجد مبررا للرفقة بشأنك أو للاستجابة لالتحامك . وهذا فانت — في رأينا — تستحق أقصى عقوبة مقررة . وهذا هو قرارنا بالاجماع » .

ونفض واقفا فاقتدى به بقية الأعضاء وهم يجمعون أوراقهم . ثم أزاحوا مقاعدهم الى الخلف، واتجهوا الى باب جانبي خلفهم، فغادروا القاعة واحدا خلف الاخر .

لبثت أهدق في ظهورهم حتى اختفى آخرهم، واصبحت بمفردي أنا وصورة القصير ذي الوجه القبيح، وأكاليل العزاء من كافة أنحاء الدنيا .

سمعت صوتا عند الباب الرئيسي للقاعة، وعندما التفت أبصرت بالحارس يتطلع الى متسائلا، فحركت قدمي نحوه في ثققل .

الحكاية هو عنوان القصة التي خصنا بها صديقنا صنع الله إبراهيم، وهي الخامسة في سلسلة القصص التي بدأها ب « اللجنة » ونشر بعضها منها في مجلة « الفكر المعاصر » المصرية .